

عندما تدهم الدبابات الإسرائيلية أية منطقة حدودية في قطاع غزة فإن جزءا لا يتجزأ من حملتها المدرعة هو الجرافات العملاقة من طراز كاتربلر التي تأخذ على الفور في تجريف الأراضي الزراعية أمامها (وما أدراك ما التجريف) ؟ إنها تجندل أشجار الزيتون القديمة المباركة ، ويتصادف أن يتم ذلك في موسم ما قبل القطاف . وتهرسها هرسا كما تهرس أشجار البرتقال وثماره التي ما زالت خضراء . وتجعل ذلك كله ترابا أو طبقة خفية تحت طبقات التراب ، فلا يدرك الغريب عن المنطقة أن المكان كان مزرعة يانعة إلا من بقايا أوراق خضراء قد تبدو مسحوقة هنا وهناك .

وقد كان صمود المزارع الفلسطيني المحافظ على أرضه وزرعه واحدا من منظومة الصمود في هذا القطاع . وكان الجميع يتقبلون حصتهم من التضحية والخسارة في صمت . فإذا كان الشهداء يسقطون ومنازل الأهالي تتهاوى فكيف لمن فقد أشجاره أن يئن ؟ ومع ذلك فإن الشجر روح وإنه عزيز كالولد عند الذين يتعهدون الشجر بالعناية ويراقبون نموه ساقا وأوراقا وأزهارا ، سنتيمترا إثر سنتيمتر .. يطعمونه ويسقونه ويدأوونه من المرض ويسندونه من الاعوجاج ! ثم يأتي الإسرائيليون في ليلة ظلماء ويدمرون الحياة في الشجر كما يدمرونها في الحجر وفي البشر .

ولكن ظلم العدو ، والإفقار والتتكيل وزرع الحشرات من قبله ليست بالجديدة . فقد سلبوا الوطن نفسه واقتلعوا أهله منه ، وجعلوا المذابح وسيلتهم إلى التعامل مع أهل فلسطين .

أما ما يلقاه المزارعون من بعض المسؤولين في وزارة الزراعة فذلك هو الشاذ والغريب والظلم الفاحش . إنهم مع بعض التجار المرتبطين بعلاقات قديمة مع

الاحتلال أخذوا على عاتقهم كما يبدو إنجاز مقاصد الاحتلال الرامية إلى حرق الزراعة الفلسطينية ضمن محرقة أولمرت وزبانيتها .

لقد دأب الاحتلال على إغلاق المعابر دائما في أوان موسم قطاف الحمضيات . وبدلا من تصدير حمضياتنا إلى السعودية التي كانت قد منحت صادراتنا إعفاء جمركيا ، (تعاون) بعض التجار . إياهم . مع بعض الجهات بطريقة ما ، وصدّروا في بعض السنوات الماضية عبر عمان حمضيات الموسم الإسرائيلية بشهادات منشأ غزية . وكافأتهم المخابرات الإسرائيلية على خدماتهم بخدمة خفية وظاهرة في المعابر .

أليس من المدهش اليوم ، وفي عز موسم حمضيات القطاع ، أن تفتح المعابر لتمير جميع ثمار الدرجة الثانية (البرارة) من الفواكه القادمة من إسرائيل بغية بوار إنتاج القطاع وبيعه على الأرصفة وعلى العربات بتراب المال تمهيدا لتبوير الأراضي وبيعها لسماسرة اليهود ؟

الناس تعرف ربها بالعقل . ونحن لا نفهم بالعقل هذه العلاقة المتينة والحميمة بين بعض التجار وبعض موظفي وزارة الزراعة بحيث يتكلم أولئك الموظفون باسم أولئك التجار ويرددون حججهم التي تعني أن المستهلك بحاجة إلى (طوفان) الشموطي والبوملي والبومليت وغيره وغيره عدا الموز والكمثرى والتفاح والبطيخ المبكر الآن وغيره وغيره تأتينا من العدو الذي يمنع عنا ذرة الإسمنت ولا يسمح لنا بنقطة البنزين إلا بشق الأنفس .. بينما يحرص القرانيس في وزارة الزراعة الغيورون على مصالح أخيهم التاجر الذي يتظاهر بالاهتمام بمصالح المستهلكين ، فيرددون كل ما يردده هؤلاء أثناء حصولهم على

أذونات استيراد البضاعة الإسرائيلية . (يقولون : خلي الناس تاكل) والسؤال (أي ناس ؟)

وما دام الأمر كذلك ، وما دامت وزارة الزراعة قد ظلت تبعا لمنطقها . كما كانت دائما . وزارة التاجر والمستهلك المزعوم ، وقد تكرر ذلك وذهبت صيحات المزارعين المنهكين أدراج دهاليز الوزارة ، فنحن نطلب من الأخ رئيس الوزراء اسماعيل هنية أن يشكل لنا وزارة زراعة تصبح على علاقة مع المزارعين ولا تستقل بسلطة إدخال المنتجات الزراعية الإسرائيلية إلى سوقنا بينما المنتج المحلي الذي لا سوق له غير السوق الوطني والذي يفرض الإسرائيليون الحصار والإغلاق على جميع الأسمدة الزراعية والأدوية والمعدات التي تخصه ضائع في هذا الزحام بسبب الصفقات الخفية التي تحتاج إلى تحقيقات عاجلة من قبل النيابة الإدارية . أو لتتفضل وزارة الزراعة وتصارح المزارعين : هل تريد زراعة فلسطينية أم لا ؟ وهل لديها سياسة لحماية المنتج الوطني أم خطة للقضاء عليه كي ينفرد الإسرائيليون بالحصول على آخر نقطة من الحوض المائي المشترك ؟ .. ولتتفضل وزارة الزراعى و(تتفرج) على فواتير الكهرباء أو فواتير السولار المستخدم في موتورات المياه في المزارع أو فواتير السماد الكيماوي والطبيعي أو فواتير الأدوية أو .. أو .. أو .. حتى لا يطلق بعض أحباب البضاعة الإسرائيلية العنان للوهم الذي يحرك عند البعض مشاعر طبقية جاهلة ضد المزارع المكافح في الوقت نفسه الذي يمثل لهم مصدر خير والذي بفضل زراعته في حقله يحملون ألقابهم ودرجاتهم الوظيفية . وكان أحرى بهم أن يفهموا المغزى الوطني للحفاظ على الزراعة الوطنية ويدرسوا موضوعيا مشكلات المزارعين

ويتعرفوا على خسائرهم عبر السنوات السوداء ويتخيلوا كم سنة من السنوات الجيدة يلزم مرورها ليعوض المزارع خسارته عندما يباع طن الحمضيات في بعض السنوات بعشرين ديناراً . فما بالنا إذا كان ذلك ينطبق على خسائر البندورة والبطاطس وغير ذلك؟! وهل سمعت الوزارة أم لم تسمع بأن هذه السنة كانت سنة كارثة بسبب الصقيع الذي ضرب العديد من المنتجات الزراعية ضربة قاضية .

وحقا قد بلغت الروح الحلقوم .. والذين يهتم الأمر لا يعون ولا يسمعون . حتى إن جوارات كبارهم لا ترد بسبب كثرة شواغلهم ومشاكلهم . ولهذا أوصل الناس صوتهم عبر الجرائد هنا ، ولا أستبعد أن يوصلوه عبر الجرائد هناك . وهناك . وهناك حتى السماء !!